الفترة الصنهاجية

العاصمة "القلعة"

من 405-547هـ 1014-1153م

الحياة الثقافية:

عندما كتب "رابح بونار" المتوفى في أكتوبر 1975، كتابَهُ المَوْسُوم بِـ: المغْرِبُ العربي، تاريخُه و ثقافتُه... صَرَّحَ بِبَاعِثَيْنِ على تأليفه لِلْكتاب، و هما: الواجب الأدبي القومي... و ثانيهما العثورُ على رسالةٍ صغيرةٍ للأسْتاذ "عثمان الكعّاك" – رحمه الله – سَمّاهَا: "بلاغة العرب في الجزائر" و في هذه الرسالة، ألقى الضوء على الثقافة الجزائرية الرّاكِدة في بُطونِ الأسْفارِ القدِيمَة، وذَكَرَ في رِسَالتهِ تَرَاجِمَ لِبَعْضِ مشَاهيرِ الأدَبَاء ...والحقيقةُ أنّي تمنّيْتُ لوْ عثرْتُ على هذه الرّسالة - أنا أيْضا – لِأشْتغلَ عليْهَا الآنَ... و أسْتعين بهَا على إنْتقاء بعْض النّصوص، إنْ كانت قدِ اشتمَلتْ على بعْض النّصُوصِ فِعْلاً؛ و ليس على مُجرّد تَرَاجِم لِلْأدَبَاء...(بَحثْتُ عنها أيّام تحْضيري للماجستير و لمْ أعثرْ عليْها).

و بِالعوْدَة إلى الحَياةِ الثقافيةِ في هذهِ الفتْرَة، يبْرُزُ صِنْفٌ جَديدٌ مِنَ الكِتابَاتِ الجَزَائِرِيَة يَتمثلُ في تِلكَ الإلْتِفَاتَات النقدية التي جَسّدَها كتابُ "العُمْدَة" لِمُؤلّفِهِ "الحسن بن رشيق المسيلي"... وفيما يلي نمُوذجٌ من هذا الكتاب:

بابٌ في اللفظ والمعنى:

« اللفظ جسم روحه المعنى وارتباطه به كارتباط الرّوح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوّته فإذا سلم المعنى واختلّ بعض اللّفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشّلل والعور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح. و كذلك إن ضعف المعنى واختلّ بعضه كان للّفظ من ذلك أوفر حظّ كالذي يعرض للأجسام من المرض. بمرض الأرواح ولا نجد معنى يختلّ إلاّ من جهة اللّفظ وجريه فيه هلى غير

الواجب قيّاسا على ما قدّمت من أدواء الجسوم والأرواح فإن اختلّ المعنى كلّه وفسد بقي اللفظ موتانا لا فائدة فيه وإن كان حسن الطلاوة في السمع كما أن الميّت لم ينقص من شخصه شيء في رأى العين إلاّ أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة.

و كذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصحّ المعنى لأنّا لا نجد روحا في غير جسم البتّة.

ثم للناس فيما بعد آراء ومذاهب منهم من يؤثر اللّفظ على المعنى فيجعله غايته ووكده.

ومنهم من يؤثر المعنى على اللّفظ فيطلب صحّته ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللّفظ وقبحه وخشونته...»[53]

و كتب "إبن رشيق" في باب القريض ... و مِمّا قالهُ في شأن "القيْروان" بَعْدَ تبدّلِ أحْوَالها:

كـمْ كـــانَ فـــيها مِنْ كِرامٍ سَادةٍ * بِيضِ الوُجُوهِ شوَامِخِ الإيمَـانِ

مُـتـعَـاوِنِينَ عـــلى الدّيَانة و التّقى * لله فـــي الإسْـرار و الإعْـلانِ

عُلماءُ إنْ ســـاءَلْتَهُمْ كشَفُوا العَمَى * بِفقاهَةٍ و فصـاحـــةٍ و بـيـــانِ

كـــانـتْ تُعدُّ بِـــهِمُ القـيْروانُ إذا * عـدّ المـنـــابِرُ زهْرَة البُلـدانِ

و زَهتْ على مصْرَ و حُقّ لهَا كمَا * تزْهو بهِمْ، وغدَتْ على بغْدانِ [54]

إلى أن يقول:

أمْستْ و قد لعبَ الزّمانُ بِأهْلِها * وتَقطعـتْ بِهِمْ عُرَى الأقْرَانِ

فتفـرّقـوا أيْـدي سَبـأ[55] وَ تشتّتوا * بعْدَ إجْتماعِهِمْ على الأوْطان[56]

بالإضافة إلى الشاعر الناقد إبن رشيق المسيلي، وُجِدَ الأديبُ النّاقدُ "عبْدُ الكرِيم بن إبراهيم النّهْشلِي" الذي وُلِدَ بالمُحمّدِية مِنْ مُقاطعَةِ الزّاب الجَزائري و هو صاحب كتاب "المُمْتِع" وَفيهِ وَضّحَ بعض الأساليب النقدية، و مِنْهَا إغترَف "إبْنُ رشيق" في عُمْدَته، وَ نسْتطيعُ القوْلَ إنّ كتابَ "العُمْدة" إنّمَا هُو نُسْخَة ثانِية مِنْ كتاب "المُمْتِع" للنّاقد عبْد الكريم النّهْشلِي... و قـدْ

1) أبو علي الحسن بن رشيق المسيلي، العُمدة في محاسن الشعر وآدابه ونَقْدِهِ، الجزء الأول الصفحتان 103و104.
2) الإحالة: * بغدانُ، يَقصِدُ بها بغْداد، وَ مَعْناَها هِبَةُ الله.
3) *تفرق القوم أيدي سبأ: مَثَلٌ عرَبِي يُضْرَبُ في أحْوال الفُرْقة و الشّتات... تفرّق القوْمُ شَذرَ مَذر... فلا رَأيَ يَجْمَعُهُمْ.
4) الإحالة:*محمد الطمّار، تاريخ الأدَبِ الجَزَائِرِي، ص ص 129- 130.

تأثّر به أيْضاً؛ بالإضافة إلى إبْنِ رَشيق؛ كلٌّ مِنَ "الحُصَري" في زهر الآداب، و إبن شرَف في رَسَائل الإنْتِقاد ...

من القضايا الشعرية التي طرحها عبْد الكريم النهشلي في "الممتع" ماهية الشعر، أولية الشعر، بين الشعر والنثر، فضائل الشعر و مزاياه، تأثير الشعر في النفوس، دواعي الشعر، القيمة الإجتماعية للشعراء في القبيلة، أصناف الشعر، آراء نقدية في بعض الشعراء، أثر إختلاف البيئة في قول الشعر.

أما القضايا النقدية التي أثارها عبد الكريم النهشلي، فتتعلق بالقديم و الجديد، اللفظ و المعنى، الطبع و الصنعة، فنون بلاغية كالتصوير و التقطيع و الاتساع و الأوزان و القوافي « وحتى هذه النصوص التي اختصّتْ بهذه القضايا، قصيرة جِدّاً، و تتسم بالشمول و العموم و يغلب عليها طابع العجلة. »[57]

من أقوال عبد الكريم النهشلي: « إن البلاغة إذا وقعت في المنثور، و المنظوم، كان الشاعر أعذر... و كان العذر على صاحب المنثور، أضيق... و ذلك أن الشعر محظور بالوزن، محصور بالقافية، و الكلام ضيق على صاحبه، و الكلام مطلق غير محصور، فهو يتسع لقائله. »[58]

و عند محاولة إنصاف النهشلي، يقول بشير خلدون: « و له مكانة مرموقة و كبيرة، في مجتمعه و بين أقرانه و لدى المثقفين الذين عاصروه، و تتلمذوا عليه من أمثال ابن رشيق وابن شرف و غيرهما، لكنه ضاع في جملة ما ضاع... و لم يجمعها مختار أوْ أديب. »[59] من الشعراء الذين وَاكبوا هؤلاء النُّقاد، الشّاعِر "أبُو الحسَن علي بْنُ أبي الرّجّال الشيْبَانِي" والذي عاش في تونس، و كان « أحد دُهاة السِّياسة الوَارِدِين على القيْروان مِنْ تيهرت. ويَذكرُ المُؤرِّخون أنَّ هذا الرَّجُلَ هوَ الّذي لقّنَ المُعزّ بْن بادِيس مَذهبِ مالِك وَ كَرّهَهُ في مَذهبِ

5) بشير خلدون، الحركة النقدية على أيّام إبن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنّشرِ و التّوْزيع، الجَزائر، 1981، ص 55.

6) المُمْتع، لوْحة، 19-20. و هذا التّوْثيق لِبشير خلدُون، ص 60. و لا أعْلمُ لمَاذا يَسْتعْمِلُ كلمة "لوْحَة" بدَلاً مِنْ صَفْحَة ؟

7) بشير خلدون، الحركة النقدية على أيّامِ إبن رَشيق المسيلي، ص 56.

الشّيعَة (...) و ذكَرَ إبْن رَشيق عنه أنّه كان رَجُلَ الخُطبِ و فارِسَ الكُتُبِ، و أقامَ سُوق العِلْم والأدَب... »[60].

مِنْ شِعرِه، بيْتانِ، وَصَفهُمَا "ابْنُ رَشيق" بِأنّهُمَا منْ أحْسن الأشْعَار يقول فيهما:

خليليَّ؛ إنْ لـمْ تُساعِدَاني فأقْصِرَا * فـلَيْس يُداوَى بِـالعِتابِ المُتيَّمُ

تُرِيدَانِ مِنّي النّسْكَ في غيْرِ حِينِهِ * و غُصْني رَيّانُ و رَأسِي أسْحُمُ

و لا شكّ أنّه كان شابّاً عنْدما أنْشدَ هذه الأبيات....

و مِن الذين كتبوا الرسائل و تفننوا في العبارة: "ابن الرّبـيـب"

رسالتُهُ إلى أدباء الأندلس:

« إني فكرت في بلدكم، أهل الأندلس، إذْ كان قرارة كل فضل ومقصد كل طرفة، ومورد كل تحفة، إن بارت تجارة أو صناعة فإليكم تجلب، وإن كسدت بضاعة فعندكم تنفق، مع كثرة علمائه، ووفور أدبائه، وجلال ملوكه ومحبتكم للعلم وأهله، ورفعهم من رفعه أدبه، وكذلك سيرتهم في رجال لحرب يقدمون من قدمته شجاعته، وعظمت في الحرب نكايته. فشجُع عندكم بذلك الجبان، وأقدم الهيبان، ونَبـُـهَ، الخامل، وعلم الجاهل، ونطق العيي وشعر البكيّ، واستنسر البغات وتثعبن الحباث، وتنافس الناس في العلوم. ثم هم مع ذلك في غاية التقصير ونهاية التفريط، من أجل أن علماء الأمصار دوّنوا فضائل أعيانهم وقلدوا الكتب مآثر أقطارهم، وأخبار الملوك، والأمراء، والكتاب والوزراء، والقضاة والعلماء، فأبقوا لهم ذكرا في الغابرين، ولسان صدق في الآخرين، وعلماؤكم، مع استظهارهم على العلوم، كل امرئ منهم قائم في ظلّه لايبرح، وثابت على كعبه لايتزحزح، يخاف، إن صنف،

أن يعنف، أو تخطفه. أتهوى به الريح في مكان سحيق، لم يُتعِب نفسا أحد منهم في مفاخر بلده ولم يستعمل نقساً في فضائل ملوكه، ولا بَلَّ قلماً بمناقبِ كُتّابه ووزرائه، ولا سوّدَ قرطاسا بمحاسن قضاته وعلمائه، على انه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه، وبسط ما

8) محمّد الطمّار، تاريخُ الأدَبِ الجَزَائري، ص 119.

قبض الإهمال من بيانه، لوجد للقول مساغا، ولم تضق المسالك عليه هناك، ولكنَّ همَّ كلِّ أحدٍ منهم أن يطلب شأو من تقدمه من رؤساء العلماء ليحوز قصب السبق ويفوز بقدح "ابن مقبل"، ويأخذ بكضم "دعبل" ويصير شجى في حلق العَمَيثل، فإذا أدرك تلك البغية، وجاءته بعد المنية، دفن علمه معه، ومات ذكره، وانقطع خبره، ومن قدمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا البقاء ذكرهم، فألفوا دواوين يبقى لهم بها ذكر يتجدد طول الأبد.

فإن قلت: إنه كان ذلك من علمائكم، وألفوا كتبا لكنها لم تصل إلينا، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق، لأنه ليس بيننا وبينكم إلاّ روحة راكب، أودلجة قارب، لو نفث ببلدكم مصدور لأسمع ببلدنا من في القبور، فضلا عن من في الدور والقصور، وتلقوا قوله بالقبول مما تلقوا ديوان "ابن عبد ربه" منكم الذي سماه بالعقد. على أنه يلحقه فيه بعض اللوم. إذ لم يجعل فضائل بلده، واسطة عقده، ومناكب ملوكه يتيمة سلكه، لكنه أكثر وطول، وأخطأ المفصل، وأصال الهز بسيف غير مقصل، وقعد به ماقعد بأصحابه من ترك مايعنيهم، واغفال ما يهمهم، فأرشد أخاك - أرشده الله – إن كان عندك في ذلك الجلية، وبيدك فضل القضية، إن شاء الله.»[61]

9) محمد الطمار، تاريخ الادب الجزائري، ص 137- 138.